السعيد من سعد به الناس

تجتمعنا الانسانية جسم واحد اعضاؤه المختلفة تربطهم المصالح وتؤلف بينهم العواطف وليس لاي من هذه الاعضاء غنى عن سواه مهما عظمت قيمته. ولا تقتصر حاجة الناس بعضها لبعض على الوجهة المادية بل ترى الكثيرين ممن توفرت لديهم سبل المعيشة على الوجه الاتم يسعون لنيل رضاء المجموع في اي طريق سلكوا يستهضهم الاقبال ويشجعهم الاطراء. ذلك ان الانسان خلق على تلك الفطرة ولا قيمة لوجوده الا بما له من اثر في الوجود ولا خير في مواهبه الطبيعية ولا في مقدرته المالية ما لم تستغربها العقول ويستعين بها الناس على سد عوزهم وصلاح حالهم

قرأت في احدى الكتب الاجتماعية انهُ مما يؤثر عن اهالي اثينا القدماء اتباعهم لسنة كانوا بموجبها يعاقبون بالقتل اياً من حمل شمعة ومنع غيرهُ الاقتباس من نارها. والشمعة هنا وهي ذلك الشيء الصغير نستطيع ان نجعلها رمزاً لاكبر الاشياء واجلها قدراً فكما انهم عدوا حرمان الانسان من الانتفاع بنار الشمعة التي في يد اخيهِ جريمة فكذلك حرمان اخيهِ مما أوتي من علم او مال جريمة لا تغتفر. وان كان قدماء الاثينيين قد رأوا في وقتهم ان لا رادع للناس عن ارتكاب ذاك الاثم الا بمثل تلك العقوبة الشنيعة فاني احسب الانسانية قد ارتقت في يومنا هذا الى حد يجعل العواطف هي الدافع الاكبر لفعل الخير والحاث للقوي على نصرة الضعيف ولذي السعة على معونة من لا عون لهُ

ومن ذلك القانون القديم الذي ارى اصل الفكرة في وضعهِ جديراً بالاحترام مع صرف النظر عن فرط القسوة في العقوبة يتبين ان مساعدة الغير مادياً وادبياً واجبة على كل فرد من افراد المجتمع الانساني. ومتى قام كل فرد بالواجب عليهِ نحو المجتمع امكنهُ ان يعيش هو وغيرهُ من بني الانسان سعداء بالمعنى الحقيقي

الناس قلّ ينشدون السعادة وقليل من يجدها للخطأ في طريق البحث عنها اذ يتغلب عليهم الطمع في كل سبيل سلكوا فينقادون لشهوات مع ان ضبط النفس والتسلط عليها اهم ما يكون في ابتغاء السعادة. قال باكون الفيلسوف الانكليزي الشهير « ان الناس يتسلط عليهم احد اثنين اما العقل واما الهوى. اما الهوى فسيد متقلب الاطوار يرمي بعبيده في كل خطر ومهلكة » وذكر

تكون ضمن الحكم البالغة التي يوردها في اشعاره وان من عرف قدره واحترم نفسه وتغلب على هواه كان السيادة لحقة . اذن فالتغلب على الهوى امر لا بد منهُ لمن شاء ان يعيش قرير العين ناعم البال

لا جمال للمواهب والمعلومات في ادخارها ولا لذة لاي من النعم في الاستئثار بها انما يهنأ صاحب هذه او تلك اذا وزعها على قدر ما ينال الغير منهُ

اي قيمة يراها العالم لعلمٍ يحفظهُ في صدرهِ او يودعهُ جوف مكتبة والجهل حولهُ منتشر سائد يتخبط الناس في ظلماتهِ تتسلط عليهم اوهامهُ وتستغويهم ضلالاتهُ . انهُ في تلك الحال اشقى بجهلهم منهم اذ هو بقوة علمهِ ينظر الى الاشياء بعين غير التي بها ينظرون ويجد من مواضع النقد فيها ما اعمى الجهل بصائرهم عنهُ ولا يستطيع وهو عضو من جسم المجتمع ألاَّ يحس مع بقية الاعضاء

فاذا ما جعل من علمهِ سراجاً مباحاً لكل من شاء ان يضيء عقلهُ وقلبهُ بنور العلم رآهُ الناس سيداً لهُ الكلمة العليا والرأي المحترم والنصح المتبع بل رأوهُ امامًا تهبهُ الجموع الانشدة والسمع والبصر . يجتذب الناس كمنهل عذب فياض لا ينقطع عنهُ الواردون طلباً للاستقاء من خيرهِ . بل رأوهُ ملكاً تحكَّم في الارواح وخضعت لهُ النفوس عن فرط حب وشدة اخلاص . وكلا الطرفين في اي الحالات مورد الريح سعيد بما اعطى وسعيد بما حصل

ومما يستوجب الدهشة والالم ان الناس مع ما فطروا عليهِ من الميل لاعتراف الغير بفضلهم وتحبيذهم لصنيعهم ينهبهم الطمع والحرص عن الالتفات لما يرضي ذلك الميل الغريزي اذا ما استدعى هذا السبيل انفاق المال اذ قد بلغ احترامهم لهُ حد القداسة فاستهانوا بواجب مساعدة المحتاجين وهو واجب احق بالتقديس من المال

لشد ما اخطأ اولئك الذين حسبوا السعادة في الاغراق في صنوف المتاع وارضاء الشهوة التي لاحد لمطمحها ونسوا بؤس الانسانية وآلامها وانى لغني مترف ذي ضمير حي وقلب حساس ان يجد على الارض سعادة نقية طاهرة وهو اينما سار وحيثما رمى ببصرهِ الفى جراحاً دامية في جسم الانسانية الشقية

ماذا على الارض التي تسير فوقها الجياد المطهمة وتجري المركبات الفاخرة تحمل الاغنياء في ملابسهم الانيقة وسطاهرهم العظيمة . عليها مناظر الفاقة المفجعة والشقاء المخيم . وماذا في الهواء الذي يرون في استنشاقهِ ترويحاً لابدانهم وترويحاً

لنفوسهم . فيه زفرات اليأس المتصاعدة والتنهدات الصادرة من اعماق القلوب وما التنهد الا بخار الكرب ماؤهُ سيال الدموع وقارهُ حر الشقاء . وعدا هنالك يسمعون او يبصرون . انهُ ليعلو على اي صوت مطرب مفرح صوت بكاء الجوع وعويل الالم وتغلب على المناظر السارة مناظر محزنة تفتت الاكباد وتعكر صفو الهناء تعساً للفاقة . كم من يد صدت . وكم من خدر هتكت وكم من عبرة اذرفت وكم من انة في جوف الليل البهيم ارسلت . هي الفاقة تقتل في النفوس كل عاطفة شريفة وتخمد كل همة عالية وتقضي على كل موهبة سامية وتسقط الشخص في عين نفسهِ وفي عين المجموع الذي هو في الحقيقة مسئول عن تلك الضحايا البشرية ضحايا البؤس وقسوة بني الانسان

نعم على عاتق المجموع يقع اثم هؤلاء وزراهُ يلقى من صنوف العقوبات الوانا نظير اهمالهِ شأنهم . فاليد التي تمتد للاستجداء عن ضعف واستكانة هي نفسها التي يحولها جمود الاغنياء الى يد الاثيم السفاك . وانة التوجع بما فيها من معنى التضرع والخشوع هي التي تعلو حتى تصير سخطاً ولعنة وانذاراً بالتخريب والسلب والنهب

من ذلك نرى ان تمرد الاغنياء بالخيرات وانكافهم على ملاذهم الشخصية وضنهم على الفقراء بما يسد حاجتهم الشخصية شقاء لهم اذ لا سعادة بغير طمأنينة ولا طمأنينة للغني والفقر ضارب اطنابهُ يستثير من النفوس كل ذرة مما كمن فيها من السوء . في حين انهُ لو عمل الاغنياء على تخفيف ويلات الفاقة لكانت النتيجة على عكس ما قدمنا . وحقيقة لو انعم الغني نظرهُ وانصف في حكمهِ لرأى ان ليس من لذة في الوجود يستطيع ان يكسبها بوجه من وجوه انفاق المال المتعددة تعادل تلك التي ينالها من تفريج كربة بائس

ما اجل مظهر الرضاء والارتياح في وجه الفقير لاقل ما يصيبهُ من خير وما اعظم صوت الدعاء يصدر خالصاً من عجوز عدت عليها العوادي وتحطم سلاح جهادها حين تلقى اية معونة . لتلك النظرات مدعاة لابتهاج المحسن وانشراح صدره ولذاك الصوت الذي يطرب لهُ القلب بشير بنعمة اوفى واوفر

الانانية هي التي تلهي المرء عن التودد للناس وملاطفتهم وبسط اليد بالمعروف اليهم وتصور لهُ السعادة في اشباع الشهوة والامتثال للهوى اما بالادخار او بالجري وراء الملذات الفاسدة التي تستنفد الكثير ولا تنتج اليسير . وشتان ما بين

من يسلك ايا من هذين السبيلين ومن يهب من نفسه للناس على نسبة ما انعم الله به عليه ويجعل موضع لذته من الحياة اداء ما للانسانية عليه من حقوق . فالاول لا يعلم من وخز الضمير ولا من اضطراب القلب عليه انه قد اتخذ من نفسه عدوًّا يثور عليه في اعظم اوقات سروره يعكر عليه صفوه ويسلبه هناءه وجعل من الناس كلهم عدوًّا يتحين الفرصة لينتقم به في حين ينعم الثاني بما حرمه هذا من طمأنينة القلب وراحة الضمير وهذان اكبر دواعي السعادة

رأى بعض الفلاسفة ان سعادة الحياة هي اللذة يبلغها الانسان من طريق الفضيلة ومن السهل ان نفهم هذا الرأي ونوافق عليه مما ينطق به الواقع لو حققنا النظر فيه حيث نرى كل من تذرع الملاذ الوقتية الفاسدة التي يتخيلون فيها السعادة كل السعادة لا يسلمون من الاكدار والآلام التي تنتج دائمًا عن الانقياد للشهوات وكل ما يبنى على اساس فاسد سرعان ما ينهار

واصول الفضائل كما ذكرها ابن عزم اربعة منها تتركب كل فضيلة وهي العدل والفهم والنجدة والجود. والاخيران ركن الاهمية في موضوع حديثنا

النجدة والجود فضيلتان كلما لبت النفوس نداءهما صلح حال المجموع وتدرجت الانسانية الى نحو ما يرجوه لها محبوها اذ هنالك ترى اليد الممتدة للعونة تسبق المستعينة فتستبقي في الوجوه ماء حياتها وتجد من نظرات العطف والرحمة والحنان ما يضمد جراح القلوب الكسيرة ويمحو من وجوه البؤساء تلك النظرة المؤلمة نظرة الذل والاستكانة بما فيها من مظهر اليأس وينتشر امامهم شعاع من الأمل يهون عليهم احتمال حياة طالما عدوها عبئًا ثقيلاً ويصبح الامن سائدًا لا تعبث به يد شريرة تدفعها الحاجة وتسكن النفوس وتطهر القلوب ويرفرف على الكون شعار الاخاء الجميل وتطيب الحياة للافراد كافة

ليسمح القراء الكرام بان يتصوروا معي جمعًا واقفًا عند نهر به سابح غالبته قواه واشرف على الغرق. المنظر مؤلم يستثير من كل نفس ارق احساساتها ولكن لم يكن من المنتظر الا تحول نظاره مزعجًا او محدق ببصره طول الموقف يكبر عليه ان يخاطر بحياته عبثًا شخصًا اندفع من وسط الجمع وألقى بنفسه في الماء مغامرًا حتى انقذ السابح من مخالب الغرق . اني لاحسب كل عاقل يقول هذا فتى النجدة والمروءة . هذا هام تدق قلبهُ مع دقات قلب الانسانية . هذا سيد الجمع

وحسبهُ جزاءً ان يكون موضع اعجاب عام يصغر امامهُ كل من ضن بقوتهِ في ذاك الموقف الخطير . واكثر من هذا شعورهُ الداخلي ونشوة الطرب التي تصل الى اعماق قلبه كلما ذكَّرهُ انهُ لبى داعي النجدة وارضى ضميرهُ

وشأن هذا المنقذ لفريق الماء شأن العامل على انقاذ غرقى البؤس والآلام . كل منهما يساعد فيسعد فينالهُ من جراء ذلك قسط من السعادة كبير

والآن اتقدم لمعشر السادة الاغنياء اسائلهم على اعتبار ان قد مر على كل منهم في حياتهِ يومان احدهما قضاهُ في لذاتهِ الشخصية منقاداً لكل ما تأمرهُ بهِ شهوتهُ والآخر كان فيهِ للجهلة مرشداً وللضعفاء غوثاً وللمعوزين معيناً . ايهما يفضل . وان الجواب الذي يتوقعهُ مني على ما اعتقدهُ فيهم من رقة العواطف ورقي الشعور متبوءٌ بما لحق كلاً منهم في الاول من ملل وندم وخسار وما نالهُ في الثاني من ابتهاج قلب وراحة ضمير واثر حسن خالد . وما دام المرء ذا مقدرة وحسن تقدير فهو لا شك يسعى لان يحيا سعيداً منعماً . وقد فهمنا مما تقدم ان ذلك لا يتم لفرد الا بمقدار مالهُ من اثر طيب على بني الانسان

اذن فهيا ايها السادة الاغنياء ها سبيل السعادة مفتوح امامكم فادخلوهُ بصالح اعمالكم وانفقوا مما آتاكم الله في وجوه البر وعضدوا كل مشروع خيري . انشئوا الملاجىء والمدارس والمستشفيات وخففوا من تلك الصيحة المرة الأليمة — يتيم محتاج . واكفوا الارامل ذاك العويل الذي يجرحن بهِ قلب الليل وتلك التأوهات التي تدمي فؤاد الانسانية يبعثها العجز عن اعالة اطفال التفوا حولهن وقد اضناهم الطوى فاستحال عليهم الهجوع والناس نيام . واجعلوا لهم من رحمتكم وحنانكم ما يخفف عنهم همومهم وآلامهم ليستبدلوا من احضان عطفكم وظل بركم احضان الأم الحنون وظل الوالد الرؤوف وليستعيضوا بالملجأ عن جنة الابوين مقاماً

انقذوا المواهب العالية يميتها الفقر والعزائم القوية يقعدها المرض في حياتها صلاح وترقية للمجموع

الاخاء يناديكم فلبوا دعاءهُ رحمة بهؤلاء الضعفاء والنجدة والجود يهتزان في صدوركم فتمهدوا بهما اولئك الذين يحتدون فيكم من عوادي الزمن كي لا تسقط بهم القافة الى الحضيض . توفوا بذلك واجب شكر الله على ما اولاكم من نعم . وتبرهنوا على تدرج الانسانية في اوج الكمال (مصرية)